ـورية بيضاء

ماساتشوستس لمناهضة العبودية» في عام 1844، سيتتالى على رئاسة هذه الجمهورية الأنغلو ساكسونية عشرة رؤساء جميعهم بلا استثناء كانوا من ملاك العبيد إما أثناء رئاستهم أو قبلها (من واشنطن 1789 . 1797 حتى غرانت 1869 . 1877). حتى الرئيس «المحرر»، أبراهام لنكولن الذي أصدر وثيقة إلغاء العبودية، لم يكن مختلفاً. فهو كان على استعداد لإبقاء العبودية قانونية لو كان ذلك سيحافظ على وحدة البلاد التي كانت همه الأول والأخير. أما وودرو ويلسون، الرئيس الليبرالي الذي استبشر العالم به وبمبادئه التي أعلنها في السياسة الدولية، فلم يكتف بكيل المديح على أكثر الأفلام التي أنتجتها هوليوود عنصرية على الإطلاق، بل إن فيلم «ولادة امة» الذي يقتبس ويلسون مادحاً التنظيم العنصري KKK كان أول الأفلام التي عرضت في البيت الأبيض على الإطلاق. بعد هذه المرحلة التأسيسية أصبحت كل التعديلات الدستورية وحتى قرارات المحكمة العليا لاحقاً غير قابلة للتطبيق كلياً.

لكن أحفاد تلك النخبة البيضاء التي اعتبرت في المادة الاولى من الدستور حينها، ولأسباب انتخابية بحتة لضمان تمثيل نيابي مؤثر للولايات الجنوبية، أن الأسود يعادل ثلاثة أخماس إنسان (من دون حق التصويت طبعاً)، سيتمتعون بوقاحة أجدادهم الشديدة ونفاقهم الفظ فيرفعون شعار تحرير المرأة والأقليات في أربع جهات الأرض لتبرير غزوهم البربري لشعوب الجنوب وتعزيز هيمنتهم على العالم.

كيف انتصر الجنوب الاميركي في حرب هزم فيها؟

في ملاحظة تنمّ عن ذكاء وعبقرية لافتة لاحظ مالكولم إكس في خطابه الشهير «ورقة الاقتراع أو الرصاصة» أن تركيبة مجلس النواب والتأثير الكبير لممثلي الجنوب من الذين يعرفون بالـ «ديكسيكراتس» (نواب ديمقراطيون جنوبيون يدعمون حقوق الولايات مقابل الحكومة الفيدرالية ويناصرون الفصل العنصري وما عرف بقوانين جيم كرو العنصرية) تتناقض تماماً مع حقيقة أن الجنوب قد خسر الحرب الأهلية. خسر الجنوب الحرب عسكرياً فقط، لكنه ربح لاحقاً معركة ما سمي بعد الحرب بـ «إعادة البناء» واستطاع فرض نظام «عبودية من دون عبيد»، كما سمى المفكر الأسود الفذ وليام دو بويس ما عرف لاحقاً بـ «القوانين الخاصة بالسود» «lack CodesB» التي أصدرتها الولايات الجنوبية وفَرَضَتْ على السود مكانة لا تختلف بجوهرها، كعلاقة اجتماعية، عن مكانة العبيد. ورغم أن فكرة «إعادة البناء» بحد ذاتها كانت إدراكاً لخلل بنيوي عميق في أساس الجمهورية يتوجب إصلاحه، لكن الظروف التي تلت الحرب الأهلية مكنت النخبة الجنوبية التي حاربت دولة الوحدة من العودة إلى موقع القرار والنفوذ مباشرة تقريباً بعد الحرب (سيطالب دو بويس لاحقاً في كتاب فذ بـ«إعادة بناء للسود»). انتهت الحرب ولم تتغير العلاقات الاجتماعية في الجوهر، واستبدلت العبودية المتوحشة بنظام فصل عنصري قذر (بسبب لا أخلاقية مقارنة نظام فصل عنصري مع آخر من ناحية السوء، فكلها قبيحة، لن أعمد للمقارنة، لكن شعار «من فيرغسون إلى فلسطين: العدو واحد والصراع واحد» يفسر الكثير من القرب الذين نشعر به تجاه اخوتنا السود هنا حين نشاهد إريك غارنر يخنق حتى الموت أمام العالم ليرى ويخاف من سطوة رسل الحضارة الغربية. ربما لهذا السبب استفز صحيفة «ذي تلغراف» أن يقوم شباب فلسطينيون بالتغريد لاخوتهم السود في فيرغسون حول طريقة التعامل مع الغاز المسيل للدموع فنقلت الخبر وكأنه مؤامرة وليس إدراكاً من الطرفين أن «العدو واحد والصراع واحد» فعلاً).

طبعاً، لم تكن الحرب الأهلية الأميركية، كما هو شائع بالخطأ، من أجل إنهاء العبودية، بل كانت نتيجة منطقية للتوتر القائم حينها بين نظامين اقتصاديين (زراعي في الجنوب وصناعي في الشمال) أصبح وجودهما معاً معيقاً لتراكم رأس المال في الشمال ومعيقاً للدور العالمي المرتقب للجمهورية التي ستحكم العالم. لننتبه للزمان والمكان والحدث لنفهم القصة جيداً ولنخلع عنا أي أوهام عن قصة المحرر العظيم أبراهام لنكولن: الحرب بدأت في 12 نيسان 1861 وبمبادرة من الولايات الجنوبية (لا من الشمال) التي أعلنت انفصالها وهاجمت قاعدة عسكرية تابعة للحكومة الفيدرالية في ولاية كارولينا الجنوبية. أما إصدار «وثيقة تحرير العبيد» فجاء في الأول من كانون الثاني 1863 بعد عامين تقريباً من بداية الحرب وكان أثرها

> **الأوروبيون قتلوا ثمانية من أول تسعة قابلوهم من السكان الأصليين**

> **روزفلت أقام معسكرات اعتقال لأكثر من 120 ألف أميركي من أصول يابانية**

الأهم حينها هو في تعديل موازين قوى الحرب (انضم إلى جيش الوحدة أكثر من 190 ألف جندي أسود). هذا يؤكد أيضاً أن العبودية لم تكن حتى السبب الذي قاد بعض الولايات الجنوبية لإعلان الانفصال والمشاركة في المجهود الحربي. وطبعاً لم تعن الحرب مطلقاً، كما هو شائع أيضاً، أن الشمال كان حينها جنة المساواة والتسامح العرقي، فأكثر المواجهات العرقية دموية في التاريخ الأميركي حدثت أصلاً في الولايات الشمالية.

في النهاية، انتصر الجنوب في حرب خسرها لأنه لم يدفع ثمن خسارته الحرب عسكرياً، ولم يُجبر على تغيير العلاقات الاجتماعية جذرياً كما بدا حينها أنه هدف الحرب. بعد فترة قصيرة عرفت بـ «إعادة البناء» ولم تتجاوز عشر سنوات حصلت الردة وتأسس نظام فصل عنصري سيدوم أكثر من ثمانين عاماً . وعملية «إعادة البناء» هذه تشبه ما يردده ببغاوات الثورات المضادة عندنا عن «عملية الانتقال الديمقراطي»، ولو كانت الثورات تقوم فعلاً على مراحل انتقالية ولم تهدف لاجتثاث كل المنظومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية واستبدالها، لما سموها كذلك. لكن ماذا تفعل بـ «مفكرين» مزورين دأبوا على رجم الناس يومياً بمصطلحات نبشوها من أدبيات المؤسسات الاستعمارية الغربية ولا تشير إلا إلى تفاهتهم. يستثنى من هذا طبعاً من نَظَرَ للمرحلة الانتقالية من موقع مثقفي الثورة المضادة، فهذه وظيفتهم.

الاستعمار الداخلي: فقر خطاب الحقوق المدنية

بعد أكثر من خمسين عاماً من صدور قانون الحقوق المدنية في أميركا لا يزال باستطاعة شرطي أبيض أن يقوم بخنق رجل أسود حتى الموت أمام الكاميرات وعلى مرأى من العالم. ورغم ذلك لا تجد «هيئة المحلفين الكبرى» أي سبب يدعو لمحاسبة هذا الشرطي ولا تجد مؤسسة العدالة البيضاء غضاضة حتى من الانتقام من الشخص الذي قام بتصوير الجريمة ووضعه في السجن بحجة اخرى. هذا يعني أن مجرد إلغاء القوانين لا يفعل شيئاً، وأن صفة «مواطن» و«دولة المواطنين» لا تعنيان شيئاً طالما كان التمييز بنيوياً وطالما كانت العلاقات الاجتماعية مؤسسة على العنصرية واللامساواة . لكن بعض فلاسفة العرب لا يكفّون عن الحديث عن وهم «المواطنة» ووهم «دولة المواطنة» وكأن هذه المواطنة معلقة في فراغ أو كأن مجرد كتابتها في نصوص قانونية سيحل المشكلة. في عام 1954، مثلاً، أصدرت المحكمة العليا حكمها في القضية الشهيرة «براون vs. مجلس التعليم» (Brown vs. the Board of Education) والذي أنهت بموجبه حكماً سابقاً يُشَرِّعُ الفصل العنصري في المدارس ويؤسس لنظام فصل عنصري في 1896 (Plessy vs. Ferguson). لكن لم يمض إلا وقت قليل فقط لتكتشف الأقليات بعدها أن حكماً قضائياً من أعلى محكمة في البلاد غير كفيل بإنهاء الفصل العنصري في التعليم وفي مرافق الحياة اليومية، ولتكتشف بعدها بسنوات أن نظام العدالة وجهاز الشرطة ليست إلا أدوات إخضاع وقهر وتقييد، ولتكتشف أيضاً أن توصيف فرانز فانون في «معذبو الأرض» عن الاستعمار الخارجي ينطبق تماماً على الاستعمار الداخلي: «العالم المستعمر منقسم إلى عالمين، والخط الفاصل، أو الحدود الفاصلة، بينهما إنما هي لثكنات ومراكز الشرطة».

لكن حركة الحقوق المدنية غفلت حقيقة الاختلاف في التجربة التاريخية للأقليات العرقية والإثنية وخدعها وهم المساواة الشكلية ووهم المواطنة. فالدراسات العرقية والإثنية تميز بين الأقليات المستعمرَة، التي استُغِلت لقوة عملها، كما حدث للأفريقيي الأصل، أو لأرضهم كما حدث للسكان الأصليين، وبين الأقليات التي تم ضمها في سياق التوسع غرباً في أعقاب صفقة لويزيانا في 1803 مثل التشيكانوز، والأقليات المهاجرة التي جاءت «بمحض إرادتها». ربما تستطيع بعض الأقليات الإثنية التي هاجرت «طوعاً»، كما حدث مع الايرلنديين مثلاً تحقيق بعض النجاح والانخراط في التيار العام، أما الأقليات المستعمَرة، فلا تزال وستبقى تواجه مؤسسات ودولة ودستور وقوانين وُجِدَتْ أصلاً لإخضاعهم ومنع اندماجهم.

خاتمة: أبطال وطواويس

بعد أكثر من خمسين عاماً على قانون الحقوق المدنية، ربما سيظن جيل مناضلي الحقوق المدنية من الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي الذين كانوا يهتفون «كل العالم يراقب» فيما كلاب الشرطة (الكلاب الحقيقية) تهاجمهم وتنهش لحمهم، أنهم أمام كابوس حين يعلمون أن العالم اليوم، في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، يشاهد فعلاً الرجل الأسود يُخنق أمام الكاميرات حتى الموت فيما لا تجد هيئة المحلفين الكبرى سبباً كافياً لمحاكمة قاتله. لكن حين يدعو بعض أبنائهم اليوم إلى اعتصام بعد آخر «Sit_In» لظنهم أن القضية هي قضية حقوق مدنية لم تحقق أهدافها بعد، فهذا يعني أنهم لم يتعلموا درس التاريخ جيداً. كان مالكولم اكس يُعَلقُ على من يدعو إلى اعتصام من هذا النوع بالقول: «لقد أضعنا وقتاً طويلاً في الجلوس. آن الأوان للوقوف». لكن للأقليات المستعمرة أبطالها، وطواويسها أيضاً. ربما لن تعرف أميركا قريباً مفكراً عبقرياً من عيار دو بويس وناشطاً سياسياً فذاً من نوع مالكولم اكس، وإرثهما سيظل يشكل تحدياً ليس للجمهورية الأنغلو. ساكسونية البيضاء فقط، بل وأيضاً للطواويس من الطبقة الوسطى من الأميركيين من أصول أفريقية وغيرها من الأقليات التي تخون أبناء جلدتها في سعيهم للخلاص الفردي والنجاة بجلدهم. كان بوكر واشنطن يطالب أهله بقبول سياسات توفيقية والعمل بجد لنيل احترام مضطهديهم من الأنغلو. ساكسون. لكن دو بويس الذي أدرك الأثر التدميري الكبير لهؤلاء الطواويس، أفرد لهم، ربما، أهم ما كتبه على الإطلاق، «أرواح الناس السود»، معلناً أن السياسات التوفيقية لا تفعل شيئاً إلا تعميق وتكريس سياسة الاضطهاد، وأن «ثمن الحرية دائماً أقل من ثمن الاضطهاد»، كما كتب في «إرث جون براون». وهؤلاء الطواويس من الأقليات، الذين يظهرون هذه الأيام في الإعلام كمدافعين شرسين عن نظام الجمهورية البيضاء، هم أنفسهم من سماهم مالكولم اكس سابقاً «عبيد البيت» الذين يبدون استعداداً للموت لإخماد الحريق في بيت «السيد»، فيما «عبيد الحقل»، من أمثاله، يجلسون هناك في الحقل، ينظرون إلى الحريق، يتضرعون لله ويصلون من أجل قليل من الريح لعل النار تلتهم البيت وسكانه.

* كاتب عربي